النسق التاريخي في الكتابة الروائية المغاربية
بنسالم حميش أنموذجا.

The historical pattern in the Maghreb novelist writing - Bensalem Hamiche as a model

طالبة دكتوراه / ساكر نجاة
أستاذ/ مجناح جمال
قسم اللغة والأدب العربي - جامعة محمد بوضياف - المسيلة (الجزائر)
مخبر انتماء طالب الدكتوراه: مخبر الشعرية الجزائرية، جامعة المسيلة.
nadjet.saker@univ-msila.dz

تاريخ الإيداع: 2020/04/19 تاريخ القبول: 2020/06/08 تاريخ النشر: 2020/11/30

ملخص:

استجابت الرواية المغاربية المعاصرة بوصفها مظهرا للثقافة في المجتمع، الى أنساق الثقافات الأخرى كما تراسلت مع الأجناس الأدبية كالشعر و المسرح، لما فرضته التوجهات الجديدة لفنون السرد. كما دعتها السياقات السياسية و الإيديولوجية إلى العودة إلى التاريخ باعتباره رفدا من روافد الخطاب الروائي. وقد تميز هذا التوجه في أنموذجه المغاربي بخصوصية سياقية ثقافية وسياسية بعد مرور المجتمع المغاربي بالعديد من الأزمات و الانكسارات والمحاورات الثقافية التي ارتبطت بالحرية والايديولوجيا والدين. فتشبعت التجربة الروائية المغاربية باستلهام الوعي التاريخي ومؤشراته المتنوعة والتي نعت بالرواية إلى فلسفة التاريخ، ما دفع الروائيين الى الاهتمام بمظاهر وعي الإنسان بالتاريخ ونقله الى المخيال السردي وتحميله قضايا وموضوعات الخطاب الروائي.

الكلمات المفتاحية: الرواية المغاربية؛ عمق التاريخ؛ الكتابة الإبداعية؛ السرد التاريخي؛ بنسالم حميش.

Abstract:

The contemporary Maghreb narration responded as one of the manifestations of culture in society, as did other cultures such as poetry and theater, as political and ideological circumstances imposed a return to history. This approach was marked by a specificity that was unknown before, especially after the Maghreb society passed through many crises and recessions and the emergence of a new artistic experience, whether at the

level of form or at the level of content by linking it to the depth of history, as some novels employed the philosophy of history. The book focused attention on highlighting human awareness to history by clarifying the position of it and projecting it to the present.

key words: The Maghreb novel; depth of history; creative writing; historical narration, Bensalem Hamiche.

لقد جاءت الرواية الغربية للتعبير عن قضايا ومآسي الإنسان في زمن التقدم العلمي الذي واكب مستجدات النهضة الأوروبية، فأرخت الانتقال الاقتصادي والسياسي الذي عرفته المجتمعات الأوروبية. ومع أن ظروف نشأة الرواية العربية اختلفت إلا أنها عانقت بدورها تاريخ العالم العربي في كثير من جوانبه المظلمة والنيرة على حد سواء.

والنظر في الرواية يحفز ذهن الباحث على تساؤلات يطرحها لإدراك علاقة الرواية بالتاريخ، وإذا تأملنا تلك العلاقة سنجدها ثلاثية الأقطاب يحركها تفاعل الإنسان بينهما، فكيف يكتب الروائي عن الإنسان دون أن يتخلل نصه تاريخ هذا الإنسان، وكيف يمكن الحديث عن فترة زمنية بأمكنتها وأحداثها وشخصياتها دون أن يكون خطاب ذلك الحديث تاريخيا. إن علاقة التاريخ بالراوية علاقة وطيدة حيث "تزامن صعود الرواية الأوربية، في القرن التاسع عشر مع صعود "علم التاريخ" اتكأ الطرفان على مقولة الإنسان الباحث عن أصوله"[1]. وتتأتى هذه العلاقة من طبيعة الفن الروائي الذي ينهض على تصوير الحدث الواقعي المعيش تصويرا فنيا تخييليا، فلا يمكن للكتابة الروائية أن تنفصل عن قضايا الواقع الذي تنبثق منه وتعبر عنه لأن الكاتب الروائي يتناول جل القضايا التي تشغله أو تشغل مجتمعه وبهذا المعنى "تكون الكتابة الروائية بحثا واستكشافا وصياغة فريدة يرى فيها الكاتب العلاقات ليس كما يراها أي إنسان آخر، وهو لا يرضاها كما هي بل يعيد تركيبها بدءا من زعزعة بنياتها وإقامة أبنية جديدة تتشكل كما تشاء وتتخذ شكل ذاتها في علاقتها بالكون والآخر والتاريخ والمجتمع"[2].

و هذا ما يحيلنا إلى تعريف الرواية التاريخية القائل بأنها "عمل فني لا ينقل التاريخ بحرفيته، و إنما ينقل تصور الأديب له، الذي ينظر في التاريخ نظرة عميقة فاحصة متأملة في التراث التاريخي مع تركيز الضوء مع حدث معين و تشكيله تشكيلا فنيا مستمدا من مادته الأدبية التي صورها في بنائه القصصي"[3]. وتكمن أهمية الرواية التاريخية في أنها رافقت تاريخ الرواية العربية منذ النشأة الأولى ثم تطورت بتطور الأحداث إذ عمد الكتاب في تلك المدة إلى

تقديم التاريخ في قالب قصصي بهدف التسلية وإمتاع القراء، ثم طغت الرومانسية على الروايات التاريخية فمال الروائيون إلى الاهتمام بالأساطير ذات الأبعاد التاريخية، كما فعل (موريس كامل) في رواية (أسطورة الجبل)، أما الرواية التاريخية المعاصرة فقد تخلت عن المؤثرين الشعبي والرومانسي بعد أن أفاد الروائيون من تقنيات الرواية الغربية [4]. يمكن للروائي أن ينتج خطابا خياليا حول أحداث واقعية قد لا يكون أقل حقيقية لكونه خياليا، فالأمر بمجمله يعتمد على كيفية إدراكه لوظيفة ملكة الخيال في الطبيعة البشرية. وبما أن التاريخ هو في الوقت ذاته شكل من الخطاب فإنه يستخدم لتمثيل أحداث واقعية كما في السرد التاريخي وتكون النتيجة نوعا من الخطاب له سمات لغوية، ونحوية، وبلاغية محددة أي التاريخ السردي[5].

إن الحديث عن العلاقة التي تقيمها الرواية مع التاريخ يحيلنا إلى الاشتراك بين هذين العنصرين الذين يجعلان إمكانية التلاقي بينهما أمرا واردا، وهذا يتطلب معرفة وافية بماهية كل منهما فالتاريخ يرتبط بالإنسان وبتشكيل وعيه بحاضره ومستقبله ، ارتباطا يختص بدراسة وتتبع مجموع الأحداث التي تميز حركية الإنسان في الزمن والمكان و رصد مجرياتها، ويكون عمل المؤرخ هو "تحقيق وسرد ما جرى فعلا في الماضي"[6] وقد تفرعت كلمة التاريخ من حيث المفهوم و الممارسة إلى كلمات عدة أهمها التاريخانية التي تتمثل "في فلسفة المؤرخ إذ يؤرخ. كما أن الوضعانية هي فلسفة العالم إذ يعمل في مخبره"[7] بمعنى أنها تتناول دراسة الأحداث والوقائع انطلاقا من نظرة خاصة للمؤرخ ومبدأ يتبناه فهو يعبر ضمنيا عن فلسفة في الحياة، كما أن التاريخانية الجديدة تجاوزت مجموعة من المفاهيم النقدية كالمحاكاة والوهم والتخيل وأعادت النظر في العلاقة بين الأدب و التاريخ حيث عملت على تنصيص التاريخ وأرخنة النصوص، "إنها بعبارة "فستر"، قامت بتذويب النصوص الأدبية في المحلول التاريخي، دون أن تتخلى عن المنهج النقدي التحليلي في التأويل و التفسير"[8]. فالتاريخ يحتمي بما هو حقيقي ويحاول تلمس الوقائع التي حدثت فعلا، بينما الرواية تشتغل على مساحات الخيال لذا يعرفها بعض النقاد بأنها "قصة خيالية خيالا ذا طابع تاريخي عميق"[9]. وهنا تحضرنا جملة (طارق علي) القائلة بأن "الخيال عند الروائي مقدس و الحقيقة مجال للانتهاك. و لا بد أن العكس صحيح عند المؤرخ"[10] وهذا ما يوضح الفرق بينهما مع احتمال طغيان أحد العنصرين على الآخر. كما تعددت مواقف الروائيين من التاريخ واختلفت نظرتهم إليه وتنوعت أشكال إعادته للواقع إلى أن صار الماضي في خدمة الحاضر ونظر الروائيون إلى "التاريخ العربي في ضوء الحاضر فرأوا فيه قبسا مضيئا وعزاء جميلا"[11].

وإن الخوض في مسألة السرد في أي نقاش للنظرية التاريخية يدور دائما في المحصلة حول وظيفة الخيال في إنتاج حقيقة إنسانية خالصة، وباعتبار الرواية العربية الجديدة هي المجال الأدبي الأوسع لتوظيف الثقافة والتراث الشعبيين فإن النقد الثقافي أسعف كثيرا النقاد في استكشاف الأنساق الثقافية المضمرة، لذا يعد السرد من منظور (بول ريكور) شكلا من أشكال المثاقفة فهو يجمع بين المشترك والمتفرق إذ يقول "يوجد بين نشاط الحكي والتجربة الإنسانية ترابط ليس عرضيا وإنما يمثل شكلا ضروريا للتثاقف"[12] وكذلك يؤكد (بول ريكور) العلاقة القائمة بين السرد والتاريخ ومدى التلازم القائم بينهما على أساس أن السرد هو الحكي المنطلق من الحاضر لرسم ملامح الماضي بطرق غير مباشرة "فالتاريخ كما السرد هو إعادة تشكيل الأحداث بآلة التخييل ورصد العلائق الممكنة ضمن حبكات حكائية تسمح للمؤرخ أن يوجد تماسكا بين الأحداث ومكوناتها"[13] .

وإن القراءة المتأنية للعديد من الروايات التي وظفت التاريخ قديمه وحديثه عند مجموعة من كتاب العرب المعاصرين أمثال : جمال الغيطاني، عبد الرحمان منيف، واسيني الأعرج ، بنسالم حميش توضح تعاملهم مع التاريخ "كمتفاعل نصي" حسب ما سماه النقد البنيوي، أي تداخل النصوص بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، تبرز ملامحه من خلال اللجوء الروائي إلى توظيف أنماط من السرد التاريخي مستفيد من سيرة الأفراد و الشعوب والمجتمعات بكل تجاربهم وإنجازاتهم الظاهرة و الخفية مع إعادة تشكيلها وفق قالب تخيلي ورؤية خاصة وتأويل يتناسب وشروط عمله الفني، وهو بتأويله لهذه المادة التاريخية ينسج أنساقا ثقافية لأن النسق لا يتحدد عبر وجوده المجرد بل عبر وظيفته باعتباره حالة ثقافية، والنص الأدبي حادثة ثقافية وكما أنه ذو طبيعة سردية لذا فإنه خفي ومضمر "و الأنساق الثقافية هي أنساق تاريخية أزلية و راسخة دائما لهذا فإنها تفرض هيمنتها على منتجي النصوص و مستهلكيها "[14] وترتبط بالوعي واللاوعي بالجماعة البشرية التي تنتمي إليها الشخصيات التخييلية.

ويدعم هذا المسعى النظر في ما أنتجه أحد الروائيين المغاربة المعاصرين الذين خاضوا في إبداع رواية تستفيد من عبر الماضي ودروسه لتتخطى عقبات وأزمات الراهن المتأزم والمتمثل في الروائي والمفكر المغربي بنسالم حميش خاصة في روايتيه (مجنون الحكم) و (العلامة) وتبقى خصوصية كل روائي في التعامل مع المادة التاريخية تميزه عن غيره وإن تقاطعت في جوانب عديدة، ولعل هذا ما يحملنا على التساؤل عن ما هو الخاص والمشترك في الكتابة الروائية؟ وما هي الأنساق الثقافية المضمرة في ثنايا الأنساق التاريخية؟ وهذا ما سيتضح لنا من خلال هذه الورقة البحثية.

كتابة بنسالم حميش بين الراهن وعمق التاريخ:

تعد الكتابة الروائية شكلا من أشكال الكتابة التاريخية التي تسجل الأحداث المرتبطة بحياة البشر والتي تصدر من وجهة نظر خاصة وتكون مؤطرة معرفيا وإيديولوجيا برؤية المبدع للمعرفة والوجود والأخلاق والقيم، وهذا ما يؤكده (محمد برادة) بقوله: "لا تستطيع الرواية ولا المحكيات أن تنفصل عن الإنسان ومعضلاته... والرواية بوصفها صيغة مثلى تستطيع أن تشخص التدهور الناجم عن اهتزاز القيم المشتركة وعناء المواطن وأحادية اللغة الآمرة"[15].

فإن لجوء بنسالم حميش إلى إدراج النص التاريخي في إبداعاته الأدبية كبنية متخللة يظهر محاولته مساءلة الماضي الممتد نحو الحاضر للكشف عن الأسباب التي شكلت أزمة المجتمع العربي المعاصر. وهو إدراج قصدي يؤكد موقفه من التراث وطريقة قراءته العميقة لاستخلاص العبر منه، وقد أكد ذلك بقوله: "هناك قولة مشهورة تقول بأن الإنسان ابن عوائده فإن حاولنا أن ننظر في العوائد التي لازال بها جاريا، نكون بالطبع ملزمين بالعودة إلى ما قد نسميه بالعمق التاريخي الذي يشكل تكوين تلك العوائد. وأرى أن محور اهتماماتنا بالمفكرين الكلاسيكيين وبالتراث عموما، لا يمكن أن تكون إلا اهتمامات وظيفية وذلك أن مجموع المشاكل والقضايا التي نعيشها حاليا هي التي تحيلنا جدليا على قصة نشأتها وتكونها. وهنا يكون الرجوع إلى العمق التاريخي أي إلى أرضية ازدياد المأساة ونمو عقدها ضرورة حيوية"[16]. وهو بقوله هذا يوضح البعد التاريخي والفني للعودة إلى التراث مؤكدا بأنه ضرورة ملحة لتصحيح مجموعة من المواقف والتصورات الفكرية وليس من قبيل الترف والترفيه. فالإبداع الأدبي جزء من البنية الذهنية الفكرية، وعلى هذا الأساس عالجت روايات بنسالم حميش بعضا من القضايا الفكرية كقضية الكتابة التاريخية، أو قضايا اجتماعية وسياسية، بشكل جمالي فني بعد أن "اتخذ من التراث العربي الفكري والثقافي والأدبي الذي يضرب بجذوره في عمق الماضي التراثي العربي والإسلامي قاعدة مرجعية له وفق رؤية جديدة لمفهوم الحداثة ببعدها الإنساني والذي يتجاوز مواقع القصور في المفهوم العربي للحداثة"[17].

والتراث من هذا المنظور يصبح جزءا لا يتجزأ من ذات المبدع الراغب في التخلص من الحيرة والقلق تجاه الحاضر والمستقبل " هذا القلق الذي يدفعنا أساسا إلى استحضار العلل العميقة لتاريخنا المسدود وإلى تمثل التركات التي تعتمد مثلا في تناقضات التقدم القائم على الاستبداد واستعباد سواد الأمة الأعظم"[18].

رواية مجنون الحكم:

إن الرواية التاريخية والرواية المعاصرة كلتاهما توظف التاريخ لكن الفرق بينهما يكمن في طريقة توظيف التاريخ، لذاك أخضعت رواية (مجنون الحكم) الخطاب التاريخي لسيطرتها، فقدمته بطريقة جديدة تتناسب وطبيعة الخطاب الروائي عن طريق توظيف التقنيات الآتية:

إدخال النص التاريخي في الرواية، تحويل السرد التاريخي إلى سرد روائي، الانتقال من الزمن الماضي إلى الماضي المستمر، تنويع في الضمائر ، تقديم الشخصية التاريخية، توظيف المادة التاريخية وشكل الكتابة التاريخية [19]. وتدور أحداثها في مصر خلال مدة حكم السلطان الفاطمي (الحاكم بأمر ألله) والذي تميز بشخصية متقلبة وغريبة الأطوار تارة يكون متدينا مقتنعا بتعاليم الإسلام وتارة يقدم على انتهاك المحرمات. وتقديم بنسالم حميش هذه الشخصية التاريخية يقصد من ورائه تقديم نسق من الثقافة السياسية الشائعة عند الحكام العرب الذين يغيرون من عوائدهم وميول شخصياتهم بحسب الظروف والمناسبات.

وقد اعتمد إدراج النص التاريخي كبنية متخللة في الرواية بطريقتين مرة خارج السياق الروائي ومرة داخله.

في الطريقة الأولى (خارج السياق الروائي) قام الراوي بتقسيم الرواية إلى أربعة أبواب يتناول كل منها جانبا من جوانب شخصية (الحاكم بأمر الله)، و تقسيم كل باب إلى فصول و إدراج نصوص تاريخية كمقدمة تتصدر الصفحة الأولى من تلك الأبواب و الفصول على شكل شواهد مدخلية تلخص الأحداث موثقا مصدرها الأصلي أسفل النص مباشرة لتدل على استنادها إلى أصول تاريخية، وهي مقاطع لمؤرخين انتقاها حميش من مصادر تاريخية عربية من مصنفات القرن الحادي عشر والخامس عشر الميلادي، هذه المقاطع بعضها يتكون من أربعة أو ستة أسطر والبعض يتكون من صفحة أو أكثر. ومن أمثلة هذه المصنفات: (بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس، الكامل في التاريخ لابن الأثير ، تاريخ المسلمين للمكين بن العميد؛ مرآة الزمان لسبط بن الجوزي). وهذا ما صنعه من قبل "رواد الرواية التاريخية، أمثال جورجي زيدان و معروف الأرناؤوط و غيرهما، حين حرصوا على توثيق المعلومات التاريخية الموظفة في رواياتهم"[20]. وتلك النصوص التاريخية نقلها بأمانة بهدف تلخيص موضوع السرد، وكذلك توثيق المعلومات التاريخية التي يدور حولها السرد الروائي بهدف إقناع القارئ بصدق المعلومات التاريخية المسرودة، ويؤكد ذلك أنه وضع في آخر الرواية قائمة للهوامش والإحالات، و الكتب التاريخية التي تم التخيل على ضوئها، وبعدها يطلق العنان لقلمه ومخيلته الروائية بالتفصيل في ذلك الحدث والاسترسال في صيرورة الحكي. وبذلك "يتجسد النزوع نحو توظيف التاريخ كأنساق تفكير مضمرة في الوعي أو اللاوعي الجمعي عند بنسالم حميش في رواية (مجنون الحكم) ... وهذا ما يجعل هذه الرواية رواية تاريخية غير عادية ولو أنها مبنية على شخصية تاريخية"[21].

أما في الطريقة الثانية (داخل السياق الروائي)، فقد اتخذ النص التاريخي الخام شكلين:

1- احترام النص الأصلي بحرفيته دون إدخال أي تغيير فيوضع بين قوسين يتخلل المتن الحكائي، وتتراوح النصوص الموظفة بين طويلة تارة تبلغ الصفحة مثلما جاء في المقطع الذي يدل على تأجج مشاعر الحاكم[22]، وتارة قصيرة "و أفعاله مظلمة تشيب لها النواصي"[23] حتى نجد كلمة أو كلمتين فقط "سيرته عجيبة"[24] ويوثق مصدرها الأصلي في آخر الرواية كهوامش.

2- تماهي النص التاريخي مع النص الروائي خاصة عندما تتولى إحدى الشخصيات الكلمة في السرد، فيصعب عندها معرفة من يتكلم بدقة، أهو الراوي بوصفه شاهدا على الواقعة من خلال قراءته وبحثه المتواصل في صفحات التاريخ، أم هو الشخصية التاريخية.

ويظهر ذلك من خلال هيمنة ضمير الغائب وعدم مشاركة الراوي / المؤرخ في الأحداث، وإحداث تغييرات في الخصوصيات المرتبطة بالسرد التاريخي باعتماد التلاعب الزمني عن طريق توظيف تقنيتي السوابق واللواحق والانتقال من الزمن الماضي إلى الماضي الممتد إلى الحاضر. وهذا ما يتيح للسارد فرصة تكسير التسلسل الزمني للأحداث، ويظهر ذلك في الباب الثالث المخصص لمغامرة أبي ركوة وهزيمته (زلزال أبي ركوة، الثائر باسم الله)، وكذلك يظهر تكسر الخط التعالقي للحكي في قصة انتقام الحاكم الدموي من المصريين جراء التنكيت عليه والتشهير به في الباب الرابع من آيات النقض والغيث (بين النكتة والانتقام : مصر تحترق)، وكذلك في الصفحات المتعلقة بمقتله وبمحاولة تسميمه والمؤامرات البلاطية التي دبرتها أخته (السلطانة ست الكل). كل ذلك أتاح لبنسالم حميش معاودة الكرة وإكمال إبحاره المثير والذكي لصيرورة السرد الروائي والتاريخي في آن واحد. كما أنه أدى أحيانا دور المؤرخ في سرد الأحداث وتقديم شخصية الحاكم مستخدما ضمير الغائب وأحيانا أخرى أوكل لتلك الشخصية مهمة السرد وتركها تتحدث عن نفسها بواسطة ضمير المتكلم "أنا الحاكم بأمر الله قد أمرتكم بسب السلف على أبواب الشوارع والمساجد، وبكتابة السب بالأصباغ على حيطان الحوانيت والصحراء ... والآن أنهاكم عن ذلك نهيا"[25].

وإن توظيف شخصيات مثل شخصية الحاكم المستبد / الظالم ورد بهدف إسقاط تاريخ تلك الشخصيات في عصرها على حاضر سماته الظلم وتدني إنسانية الإنسان وشيوع الفساد الأخلاقي والسياسي وكذا الاقتصادي فضلا عن طغيان الفكر الاستبدادي بصرامة لا مثيل لها، مع انغماس الحكام في عالم الترف واللهو و اللامبالاة بمعاناة الشعوب. وتحقق هذا المسعى لحميش من خلال إعادته كتابة التاريخ وتأويله تبعا لقناعاته ورؤاه الفكرية، فأظهر عبقرية في

مساءلة الماضي برؤية جديدة ومغايرة تصدر عن روائي فنان لا برؤية المؤرخ المنفذ لأوامر سلطة معينة.

وبما أن رواية (مجنون الحكم) نشأت "من رحم التاريخ وتشكلت نتيجة انصهار فسيفساء مصادر تاريخية غنية ساهمت في ميلادها فجاء نصا واقعا بين التخييل والتاريخ، فالنص الروائي "مجنون الحكم" نص لاحق متخيل عاد إلى النص السابق "التاريخ" تتضح منها شبكة من الدلالات يريد بها الروائي إعادة رسم قانون الحكم العربي الإسلامي والقائم على تمثل السلطة وفق منظومة تبني شرعيتها على احتكار القوة والمتعة"[26] ، فلقد جاءت روايته مثل ما يشبه الكتاب التاريخي بتقسيمه الرواية إلى أبواب وفصول تطرق في كل منها إلى جانب من جوانب فترة حكم (الحاكم بأمر الله) أو ناحية من نواحي شخصيته، فأوضح بذلك معالم الحياة السياسية في تلك المدة التاريخية وما شهدته من أحداث واضطرابات. هذا عن توظيف حميش للمادة التاريخية في روايته، أما عن توظيف شكل الكتابة التاريخية فيظهر على مستويي الأسلوب واللغة. فعلى صعيد الأسلوب يظهر وكأنه يحاكي أحد المؤرخين في تسجيل الأحداث التاريخية، وهذا ما يلاحظ في (البداية والنهاية) لابن كثير و (الكامل في التاريخ) لابن الأثير حيث يظهر التأثر بهما في منهجية الكتابة من خلال تدوين أحداث التاريخ بذكر السنة ثم الاسترسال في عرض الأحداث التي حدثت خلالها. أما عن اللغة المستعملة في الرواية فكان أكثرها لغة السرد التاريخي، تجلت عبر أقوال المؤرخين والشخصيات التاريخية التي اعتمدها الراوي بين ثنايا السرد، وأيضا من خلال وجود ألفاظ غير مألوفة في السرد الروائي المعاصر مثل الكنايات "يهوى من يكسر ثقافته وتقاليده، ويقض مضاجعه"[27] ، و التقسيم في قوله "أعداؤكم مقياس قوتكم فواجهوهم إن ظهروا، وابحثوا عنهم، وفتشوا إن غابوا وتستروا"[28]. ولا يقتصر توظيف الراوي للغة كتب التاريخ على المفردات والتراكيب فقط بل يتعداها إلى توظيف نسق التركيب اللغوي المنتمي إلى الماضي ويظهر من خلال اعتماد لغة القدامى في تحرير السجلات و تبليغ المراسيم والقرارات.

وأخيرا فإن كل ما تقدم يؤكد ما ذهب إليه (خوان غويتيصولو) من أن رواية (مجنون الحكم) "تأخذ على عاتقها الصدع بما يتناساه المؤرخ ويسكت عنه، أي الصرخات المضمرة والمتمزقات المستشرية والحقائق الحية"[29]، فهي لم تكن رواية تاريخية بالمفهوم التاريخي الصارم تروي تاريخا وتعبر عنه وتناقشه بقدر ما كانت رواية تضرب بجذورها في عمق الماضي وتستقر في الحاضر، لتؤكد العلاقة الوطيدة بين الماضي والحاضر.

رواية العلامة:

استدعى بنسالم حميش التاريخ في روايته العلامة من خلال شخصية تعد أحد أهم رواد علم التاريخ في القرن الثامن الهجري، وهو العلامة عبد الرحمان بن خلدون حيث استدعاه لتاريخه العام الذي يتموقع فيه ويعتبر أحد عناصره، والخاص الذي دونه وأسس به لعلم بأكمله "إن ابن خلدون يمثل هذا المنعطف بالذات، من حيث أنه أصل في ذلك الاهتمام الجاد بظواهر التغيرات و "ريح الحضارة" و "خبر الواقعات"، وفتح طريق اكتساب العقل التحليلي، القادر على فهم إنباء التاريخ وتشكل عقده ومحطاته. بكلمة جامعة إنه من استطاع الدفع بالوعي العربي - الإسلامي إلى تمثل جدلية تاريخية فوق مقاصده الذاتية، العفوية المباشرة، أي في حقل النظر وإعمال الفكر النقدي"[30].

لقد قام ابن خلدون بتصوير حياة المجتمع العربي الإسلامي في الفترة التي عاصرها وحلل وفسر التاريخ باعتباره وقائع اجتماعية، وعودة بنسالم حميش لهذا المفكر تمت من زاوية نظر الفكر السوسيولوجي الباحث عن تأصيل رؤية ومنهج تاريخيين وذلك " لتأصيل الكتابة الروائية العربية تأصيلا ينبني على القناعة وليس على الافتراض، هذه القناعة التي تتجسد من خلال الإيمان بأن السرد العربي كما الفكر العربي يجدان أصولهما في الطينة العربية وذلك باعتبار الحاضر غير معزول أو مقطوع عن الماضي"[31].

كما عبر بنسالم حميش عن مواقفه الفكرية حول مسالة العودة إلى التراث ومدى ضرورة انطلاق هذه العودة من همومنا الحاضرة ومن مهام اللحظة الراهنة بقوله: "أعتقد شخصيا أن هذه الأطروحة إن كانت تنطبق على مفكر، فعلى ابن خلدون بالدرجة الأولى،... و أرى أن كل باحث في العصر الحاضر حاول أن يحلل مسالة التخلف التاريخي، فإنه لابد و أن يجد أمامه ذلك المفكر المؤرخ كشاهد عيان على عصر دال و مفيد جدا من حيث أنه جمع، على سبيل البلورة أو الإعلان، تناقضات أدى تراكمها و تعقدها إلى محنة ذلك التخلف و مؤخرا لم يكن مقيدا بتلك التناقضات فحسب و لكنه كان كذلك محللا و منظرا"[32].

و بذلك يكون حميش من الكتاب المغاربة الذين اهتموا بالرواية التاريخية في جل أعماله الأدبية والتي ينتج من خلالها نموذجا مغايرا عن الكتابة المغاربية الروائية عموما و الرواية التاريخية على وجه الخصوص، بطرحه مجموعة من المواقف والتصورات الفكرية للعديد من المفكرين العرب المعاصرين الذين يقللون من أهمية العودة للفكر الخلدوني واستلهامه "و جعله مدخلا للتفكير في أزمة العالم العربي الراهنة الممتدة في الماضي... و العودة أساسية كذلك للتأكيد على أن علاقة الذات المفكرة بالماضي ليست علاقة معرفية صرفة. بل إنها كذلك علاقة وجدانية و وجودية"[33].

كما أن نص رواية (العلامة) الذي ينتمي إلى حقل الإبداع الأدبي يتعالق مع نصوص سردية أخرى سابقة له تنتمي إلى الحقل التاريخي محققا ظاهرة (التعالق النصي) حيث عمل بنسالم حميش على استدعاء نصوص تاريخية لابن خلدون لإنتاج نصه الروائي، وهي على التوالي : مقدمة بن خلدون - كتاب العبر- كتاب التعريف – شفاء السائل.

وقد شكلت تلك النصوص منطلق السردية الروائية، فوردت عناوينها بشكل واضح داخل المتن الروائي و متكرر و في سياقات مختلفة، وهذه الجمل نماذج تمثل ذلك الحضور:

- "إن رسالتي شفاء السائل عمل فج هزيل" [34]
- "الاطلاع على المقدمة ياقوتة العقد في أعمالك" [35]
- "عساني أتابع تحرير الفصل في المماليك من كتاب العبر، وكذلك سيرتي الموسومة التعريف بابن خلدون ورحلته غربا و شرقا" [36].

وهذه الأمثلة تحقق ما يسمى بالتعالق النصي من خلال العلاقة التي تربط نص(العلامة) بنصوص ابن خلدون التي سبقته في الوجود والتي تمثل التاريخ، وقد تجاوزت هذه الروابط بين الإبداع الروائي والتاريخ إلى ممارسات تناصية أخرى كالمحيط النصي مثلا والمتعلق بنظام العنونة المتبع فهو لا يخلو من تأثيرات التاريخ. فكلمة العلامة والتي تشكل عنوان الرواية تشير إلى الشخصية الأساسية لنص ابن خلدون وتحضر كواحدة من صفاته بل وأهمها، و "يعيد علينا المؤلف بعض تلك الأوصاف و الدوال لتفادي تكرار الاسم الشخصي، و هذا ما يفسر مراوحة الروائي في بعض الأحيان بين إيراد الاسم الشخصي للبطل و الصفات التي تدل عليه" [37].

وإن التنوع في تقديم الشخصيات هو ما جعل الرواية المعاصرة تخالف الرواية التقليدية التي يهيمن فيها الراوي المتصرف في باقي الشخصيات، لذا عدت شخصيات النص الروائي المعاصر تعبيرات ثقافية إيديولوجية تمثل الانتماء الاجتماعي للمؤلف وتصوره الثقافي فهي تستمد من الحياة الواقعية دلالاتها وميولها ورغباتها.

وبناء على ذلك إتبع بنسالم حميش طريقتين خلال تقديمه شخصيات الرواية: الأولى بواسطة الراوي الذي يعرض مجموعة من صفات تلك الشخصيات الظاهرية والباطنية ومواقفها تجاه القضايا. والثانية بتقديمها على لسان الشخصيات نفسها. أما عن صورة بطل الرواية العلامة فجعلها الراوي تتحدد من خلال علاقته بحكام عصره الذين كان لهم دور في تحديد مصيره ويتضح ذلك في الفصل الأول من الرواية (الإملاء في الليالي السبع). و هو شخصية واقعية مؤرخ وعالم عاش في الثامن الهجري اضطر إلى التنقل و الترحال ليتجنب الصراع مع السلطة السياسية بالمغرب، وطلبا للمعرفة وخدمة للعلم. وقد أعاد الراوي تلك

الشخصية التاريخية إلى الواقع لتنقل القضايا التي عاشها في الماضي والتي لا تزال تؤرق الإنسان في الزمن الحاضر، ولذلك تجلت صورة العلامة من خلال طرح تصوراته ومواقفه من العديد من القضايا العلمية من خلال حواراته مع كاتبه (حمو) ومنها مفهوم التاريخ والعصبية وآداب الرحلة والتصوف. وبالنسبة لموقفه من مفهوم التاريخ ومناهجه السائدة قبل زمن ابن خلدون فلقد عرض نقده للكتابة التاريخية كالتي انتهجها (المسعودي) في مؤلفه (مروج الذهب) ورحلة ابن بطوطة، فهي في نظره مفرطة في التخييل المخالف للحقيقة وشبيهة بما جاء في الأساطير و الخرافات، بالرغم من أنه لا يقلل من أهميتها وقيمتها الجمالية والفنية. وإن استحضار حميش لهذا الموقف الخلدوني يحمل دلالة عميقة تجسد موقفه من التحديث والتأصيل في الكتابة الروائية العربية والذي يرى بأنه سيوصلها إلى مصاف العالمية و يظهر ذلك في الرواية من خلال حديثه عن ابن خلدون "ليس من ناكري كنه الحلم و العجيب بل من مستطيبيه عند مقامه الأنسب الأرضي، وليس من رافضي الحكايات الغريبة اللطيفة ذات الإيحاءات القديمة الجديدة، بل من مستقبليها بالتهليل والترحاب في دوائر التخليل والإيهام"[38].

كما يطغى الحوار في الرواية كحوار العلامة مع الكاتب (حمو الحيحي) ومع شخصية أخرى هي (الخادم شعبان) وبذلك الحوار انتقل السرد من صيغة السرد الحرفي لضمير الغائب إلى السرد المشهدي القائم على الحوار الذي ينتج عنه تعدد الأصوات المؤدية إلى تعدد وجهات النظر بحكم حواريتها وقد جاءت بهدف عرض نموذج للتفكير العلمي وحرية التعبير والتحاور مع الآخرين، وهذا ما يعرف عند (ميخائيل باختين) بدلالات وأبعاد الحوارية التي "تعرض لنا توازيات بين موضوعات المعرفة والسلطة وبين الشخصيات وموضوعات المعرفة والسلطة، وبين المؤلف والقارئ. والنتيجة هي تقديم درس أخلاقي قوي في مسألة الحرية وخصوصا حرية الفكر والتعبير عن الرأي"[39].

ولدعم تاريخية الرواية عمد بنسالم إلى توظيف نصوص استقاها من مصادر تاريخية مختلفة مثل ما فعل في الفصل الأول حين صدره بمقولتين لكل من (لسان الدين بن الخطيب وشمس الدين السخاوي) ذكر فيهما بعض صفات العلامة ابن خلدون. كما استعان بنص تاريخي آخر (رفع الإصر من قضاة مصر لابن حجر العسقلاني) في الجزء الذي ذكر فيه زواج العلامة من (أم البنين)، حيث انطلق من ذلك النص التاريخي ثم حلق بالقارئ في عالم تخييلي تناول فيه الجانب النفسي والوجداني للعلامة. كما أن شخصية العلامة تميزت بانفتاحها على باقي الشخصيات بمختلف انتماءاتها الاجتماعية والثقافية والجغرافية وهذا يبين دور المثقف المتواضع الداعي إلى الفكر المنفتح كما يبرز الهوية الثقافية والتي تحمل بعدا قوميا وإنسانيا،

فقد أشار حميش في رواية العلامة إلى أن ابن خلدون كان يحب أن ينعت في المغرب بالحضرمي وفي المشرق بالمغربي.

الخاتمة:

إن تجربة بنسالم حميش الإبداعية خاصة في روايتيه (مجنون الحكم، العلامة) قد استقطبت التاريخ كمرجعية للحدث الروائي وتنوعت استفادته من نسق الأحداث التاريخية ما بين محاكاة شكل النصوص التاريخية القديمة وأسلوبها وبين توظيف المادة التاريخية وجعلها منطلقا لإثارة الجدل المتعلق بإشكال الهوية والانتماء، كما دعم ضرورة إعادة التواصل مع الموقف التاريخي لإنتاج دلالات جديدة إذ يبدو التاريخ رمزا من الماضي الكائن في الحاضر، وهو بذلك يكون قد حذا حذو (بول ريكور) الذي عد القصص والتواريخ من أهم الوسائل الفلسفية لفهم الوجود. ويبدو أنه قد تمكن من تحقيق جماليات خاصة في الشكل الروائي المعاصر بكل ما يحمله من تشخيص للواقع ومن رسائل إيديولوجية وكذلك من قيم جمالية وفنية.

المصادر والمراجع:

1- فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004، ص 5.
2- محمد أحمد القضاة، التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، عمان، الأردن، 2000، ص 43.
3- أنظر إبراهيم السعافين، تحولات السرد، دراسات في الرواية العربية، دار الشروق، ط 1، عمان، 1996، ص 201.
4- عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1992، ص50.
5- عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط2، 1988، ص9.
6- المرجع السابق، ص16.
7- عبد الرحمان النوايتي، السرد والأنساق الثقافية في الكتابة الروائية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2016، ص 87.
8- مجموعة من المؤلفين، الأدب والأنواع الأدبية، تر، طاهر حجار، دار طلاس، دمشق، 1985، ص 128.
9- طارق علي، تأملات في الرواية و التاريخ، ندوة الرواية و التاريخ، دار الكتب القطرية، 2005، ص 30.
10- إبراهيم السعافين، تحولات السرد، دراسات في الرواية العربية، دار الشروق، ط 1، عمان، 1996، ص 165.
11- حاتم الورفلي، بول ريكور، الهوية والسرد، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 2009، ص 06.
12- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 3، 2005، ص 174.
13- محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002،.
14- إبراهيم السعافين، تحولات السرد، دراسات في الرواية العربية، دار الشروق، ط 1، عمان، 1996،.
15- عبد الرحمان النوايتي، السرد والأنساق الثقافية في الكتابة الروائية، ص 235.

16- بنسالم حميش، مجنون الحكم، رياض الريس للنشر، ط 1، 1990، ص 256.
17- وهيبة حمادي، السرد الواقعي والتاريخ التخييلي في رواية "مجنون الحكم"، مجلة علوم اللغة وآدابها، الجزائر، المجلد 12، العدد 1، 2020.
18- خوان غويتيصولو، مقدمة لترجمة رواية مجنون الحكم إلى الإسبانية، سلسلة إبداعات شراع يوليوز، غشت 1998.
19- بنسالم حميش، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، دار الطليعة، ط1، 1998، ص 17.
20- عبد الرحمان النوايتي، السرد والأنساق الثقافية في الكتابة الروائية، ص 230.
21- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990ن ص 214.
22- النظرية الروائية عند باختين (النقد الحواري)، ترجمة وتقديم محمد عبد الغاني غنوم، مجلة البيان، العدد 374، سبتمبر 2001.

الهوامش :

23- فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004، ص 5.
24- حليم بركات، لماذا الكتابة، مجلة الوسط، العدد 47، 1992.
25- محمد أحمد القضاة، التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، عمان، الأردن، 2000، ص 43.
26- أنظر إبراهيم السعافين، تحولات السرد، دراسات في الرواية العربية، دار الشروق، ط 1، عمان، 1996، ص 201.
27- عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1992، ص50.
28- عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط2، 1988، ص9.
29- المرجع السابق، ص16.
30- عبد الرحمان النوايتي، السرد والأنساق الثقافية في الكتابة الروائية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2016، ص 87.
31- مجموعة من المؤلفين، الأدب والأنواع الأدبية، تر، طاهر حجار، دار طلاس، دمشق، 1985، ص 128.
32- طارق علي، تأملات في الرواية و التاريخ، ندوة الرواية و التاريخ، دار الكتب القطرية، 2005، ص 30.
33- أنظر إبراهيم السعافين، تحولات السرد، دراسات في الرواية العربية، دار الشروق، ط 1، عمان، 1996، ص 165.
34- حاتم الورفلي، بول ريكور، الهوية والسرد، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 2009، ص 06.
35- المرجع السابق، ص80.
36- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 3، 2005، ص 174.
37- محمد برادة، شرك الكتابة، مجلة الوسط، العدد 21، 1992.
38- حوار الفكر الخلدوني، منشورات الإتحاد الاشتراكي، 1986، ص 125- 126.
39- عبد الرحمان النوايتي، السرد والأنساق الثقافية في الكتابة الروائية، ص 147.
40- حوار الفكر الخلدوني، مرجع سابق، ص126.

41- محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002، ص 80 وما بعدها.
42- أنظر إبراهيم السعافين، تحولات السرد، دراسات في الرواية العربية، دار الشروق، ط 1، عمان، 1996، ص 35 وما بعدها.
43- عبد الرحمان النوايتي، السرد والأنساق الثقافية في الكتابة الروائية، ص 235.
44- بنسالم حميش، مجنون الحكم، رياض الريس للنشر، ط 1، 1990، ص 256.
45- الرواية، ص 225.
46- الرواية، ص 254.
47- الرواية، ص 40.
48- وهيبة حمادي، السرد الواقعي والتاريخ التخييلي في رواية "مجنون الحكم"، مجلة علوم اللغة وآدابها، الجزائر، المجلد 12، العدد 1، 2020.
49- الرواية، ص 15.
50- الرواية، ص 17.
51- خوان غويتيصولو، مقدمة لترجمة رواية مجنون الحكم إلى الإسبانية، سلسلة إبداعات شراع يوليوز، غشت 1998.
52- بنسالم حميش، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، دار الطليعة، ط1، 1998، ص 17.
53- عبد الرحمان النوايتي، السرد والأنساق الثقافية في الكتابة الروائية، ص 230.
54- المرجع نفسه، ص 231.
55- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
56- الرواية، ص 38.
57- الرواية، ص 19.
58- الرواية، ص 143.
59- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990ن ص 214.
60- رواية العلامة، ص 36.
61- النظرية الروائية عند باختين (النقد الحواري)، ترجمة وتقديم محمد عبد الغاني غنوم، مجلة البيان، العدد 374، سبتمبر 2001.